١١ ـ الفن

للكاتب الفرنسي بول هيزيل

بقلم الدكتور محمد بهجت

عن الأمس وعن اليوم (تابع)

فقلت وأنا أطبق ما شرحه صديقي على التماثيل التي أمامنا :

« لابد وأن يكون صعباً على المرء أن ينفذ إلى أعماق نفوس الآخرين على هذا النحو » .

« نعم لاريب في ذلك » ثم عاود حديثه في شيء من التهكم :

« ولكن أكبر الصعاب التي تصادف الفنان الذي يمثل تمثالا أو يصور صورة لا تأتي من ناحيته ولكن من ناحية العميل الذي يعمل له الفنان . إن الإنسان الذي يطالب الفنان بعمل مثال له يشابهه تمام المشابهة لهو الذي يمنت الفنان عنتاً شديداً بقانون عجيب قاتل . إذ قلما يستطيع امرؤ أن يرى نفسه على حقيقتها ، وإن هو استطاع ذلك فإنه يأبى على الفنان أن يظهره على تلك الحقيقة . بل يريد منه أن يظهره بمظهر مبتذل تافه . إنه يود أن يبدو كاللعبة التي تحركها الخيوط ، يسره أن يظهر بالوظيفة التي يؤديها أو بالمركز الذي يشغله في الهيئة الاجتماعية ، وأن يمحى الرجل الذي فيه محواً تاماً . فيرغب الحاكم في أن يرى ثوبه المنمق ، والقائد عباءته الموشاة بالذهب ولكن قلما يعنى أحد منهم بأن تُقرأ أخلاقه ونفسيته من صورته .

وفي هذا ما يفسر نجاح الكثيرين من أوساط المصورين والمثالين الذين يقنعون بإبراز المظهر الذي لا يدل على شخصية عملائهم كملابسهم المزخرفة وهيئاتهم الرسمية . أولئك هم الفنانون الذين لهم الحظوة الكبرى لدى الجمهور لأنهم يدلون على مُثلهم ستراً من العظمة والأبهة . وكلما زادت تهاويل الصورة وتزاييفها كانت أقرب إلى اللعبة الجامدة المزوقة ، وازداد ارتياح العميل إليها .

ربما لم يكن هذا كذلك في كل الأحوال . إذ يظهر أن بعض سادة القرن الثامن عشر مثلا كانوا يطربون لرؤية أنفسهم مصورين على هيئة ضباع أو نسور على ظهر أنواط من تلك التي كان يصنعها بيزانللو . كانوا ولا شك فخورين بشخصياتهم أو بالحرى كانوا قد أحبوا الفن وأجلوه ، واستساغوا صراحة الفنان الجافة النابية كما لو كانت جزاء موقعاً من رئيس روحي .

لم يتردد المصور تيتيان في إظهار أنف البابا بولس الثالث على هيئة فنطيسة ابن عرس ، ولم يحجم عن إيضاح غطرسة شارل الخامس الجافية ، أو عن تبيان شهوانية فرانسوا الأول . ومع كل ذلك لم يفقد مكانته أو شهرته لديهم . كذلك كان شأن فلاسكويز الذي لم يملق الملك فيليب الرابع فصوره كرجل غفل خامل برغم ما يبدو عليه من الظرف وحسن الشمائل ؛ ولم يتحرز من إظهار فكه المتدلي ، ومع ذلك استبقى حظوته لديه فاستحق بذلك الملك الإسباني الإجلال والإكرام من الأجيال القادمة لأنه كان نصير العبقرية وملاذها .

أما رجال اليوم فقد أصبحوا يخشون الحق ويحبون الكذب . ويبدو منهم أنهم يمقتون رؤية أنفسهم على سجيتها في الصور والتماثيل . كلهم يريد أن تكون عليه سيما التجمل والتزين .

حتى أكثر النساء جمالا ممن لهن قسمات مليحة ممتازة يستبشعن جمالهن وينكرنه عند ما يبرزه مثال نابه . فتراهن يضرعن إليه أن يجعلهن دميات بأن يضفي عليهن ملامح كالتي تبدو على عرائس الأطفال ودماهم .

وعلى ذلك ، فعلى المثال الذي يشرع في عمل تمثال أن يخوض غمار معركة طويلة مضنية . وكل ما يهم في الأمر ألا ينكص على عقبيه أو يضعف أو يهن بل يظل ثابتاً مخلصاً لنفسه . فإذا ما رفض عمله زاد الطين بلة . وربما كان الخير في ذلك لأنه غالباً ما يكون لذلك العمل مزايا عظيمة .

أما العميل الذي يقبل قطعة طيبة على غير مشتهاه ورضاه ، فإنه لايلبث أن يغير شعوره نحوها عندما يتنحاها الهواة ، وينتهي به الأمر أخيراً إلى الإعجاب بها ، وبعد ذلك يعلن في صراحة أنه كان يحبها ويقدرها دائماً

وفضلا عن ذلك يلاحظ أن أروع التماثيل وأجلها هى ما صنعت للأهل أو للأصدقاء بلا مقابل ، وليس ذلك لأن الفنان يعرف مثاله معرفة طيبة من طول النظر إليه ومحبته له فحسب ، بل لأن مجرد شعوره بإهداء عمله إليه يطلق له عنان الحرية فى العمل

ومع ذلك فقد رفضت أحسن التماثيل عندما وهبت للأصدقاء بغير مقابل ، وعلى الرغم من أنها قطع خالدة ، فقد أعدت إهانة للمهدى إليهم . ينبغى على الفنان أن يسير فى طريقه قدماً ، ويجد تمام لذته وحسن جزائه فى أن يقوم بعمله على خير الوجوه وأحسنها »

لقد تابعت باهتمام كبير نفسية الجمهور الذى يتصل به الفنان ولكن يجب على أن أثبت هنا أن كثيراً من المرارة كانت تمازج تهكم رودان ، قلت له :

« ولكن يظهر يا أستاذ أنك أغفلت تجربة من تجارب حرفتك ، وهى أنك تصنع تمثالا لعميل لا يحوى رأسه تعبيراً ما ، أو ينطوى على غباوة ظاهرة . فضحك رودان من قولى ثم أجاب :

« هذا لا يمكن أن يحسب فى عداد التجارب . ثم لا يجب أن تنسى مبدئى الذى أستمسك به دائماً وهو : أن الطبيعة جميلة أبدا . وليس علينا إلا أن نفهم ما تظهره لنا . إنك تتكلم عن وجه بلا تعبير . وفى الواقع لا يوجد مثل هذا الوجه لدى الفنان الذى عنده أن كل رأس يدعو إلى الاهتمام . دع مثالا يلحظ وجها غفلا ساذجا ، أودعه يظهر لنا معتوهاً منصرفاً إلى العناية بمظاهر دنياه فترى منه تمثالا جميلا رائعاً .

« ثم ان ما يسمى (بالسطحية) غالباً ما يكون شعوراً غير مكتمل بالنسبة لنقص التعليم والتهذيب وفى تلك الحالة يتخذ الوجه مظهراً غامضاً جذابا لعقلية تبدو كأنها مقنعة بقناع شفاف » .

« وأقول أخيراً — ولا أدرى وايم الله كيف أفصح عما أريد أن أقول — إن أحقر الرءوس شأناً ، وأقلها خطراً ما هو إلا مستكن لتلك القوة السحرية العجيبة — الحياة . وعلى ذلك فهو معين لا ينضب لعمل الطرفة الفنية الفذة » .

شاهدت بعد عدة أيام بمرسم رودان فى ميدون صبائب لكثير من تماثيله البديعة . وهناك انتهزت الفرصة وسألته أن يوقفنى على الذكريات التى تبعثها تلك التماثيل . كان هناك تمثال فيكتور هوجو — غارقا فى بحار التأمل ، جبهته المجعدة كأنها البركان ، وشعره الأشعث كأنه ألسنة لهب أبيض تندلع من جمجمته ... إنه تمثيل صادق للشعر الغنائى الحديث من حيث عمقه واصطخابه .

قال رودان :

« إن صديقى بازير Bazire هو الذى قدمنى لفيكتور هوجو وعرفنى به . وكان بازير كاتم سر جريدة المارسييز ثم جريدة الاتراسيجان فيما بعد . وكان يعبد فيكتور هوجو . وكان أول من فكر فى عمل حفل سنوى للشاعر العظيم بمناسبة عيد ميلاده الثمانين . وكان الحفل كما تعلم حادثاً رائعا . فقد أشرف الشاعر من شرفة منزله يحيى الجماهير الغفيرة التى قصدت منزله تطلب مشاهدته . فكان كأنه البطرق يبارك شعبه . ومن أجل ذلك اليوم احتفظ هوجو باستنان عظيم لذلك الرجل الذى دعا إلى الحفل ونظمه . وهكذا استطاع بازير أن يتقدمنى إليه فى غير مشقة . ولسوء الحظ كان فيكتور هوجو موتوراً من مثال وسط إسمه فيلان Villain اضطره إلى جلوس ثمان وثلاثين جلسة أخرج له بعدها تمثالا رديئاً . ولهذا فإنى عندما تقدمت إليه متعثراً بأذيال الخجل ، مبدياً له رغبتى فى تخليد قسمات مؤلف « التأملات » قطب حاجبيه الأوليمبيين وقال : « أنا لا أستطيع أن أمنعك من العمل ، ولكنى أصارحك القول إننى سوف لا أجلس إليك وسوف لا أبدل عادة من عاداتى من أجلك ، فدبر أمرك وتخير أداتك .

(يتبع)

دكتور محمد بهجت
قسم البساتين

صديقى القارئ

الكتب الآتية

ضرورية لثقافة فكرك ولسانك

قرش

وحى الرســـالة : للأستاذ أحمد حسن الزيات ٤٠

آلام فـــرتر : ٤٠

رفائيـــل : ٤٠

دفاع عن البلاغة : ١٥

اطلبها من إدارة « الرسالة » ومن المكاتب الشهيرة